2- تجليات المقاومة الفلسطينية في شعر حسين حيدر.

بقلم الباحث حسن توفيق مظلوم.

باحـــث فـــي اللّغــة العـربيّـــة وآدابهــا.

دكتوراه في اللغة العربية وآدابها قيد المناقشة، جامعة الجنان

dr.hassan.mazloum@outlook.com

تاريخ الاستلام: 2023/5/11 تاريخ القبول:27/5/ 2023

الملخص:

يتناول هذا البحث» تجليات المقاومة الفلسطينية في شعر حسين حيدر»، متحدثا في البداية عن حياته ونشأته، وانتمائه السياسي، وثقافته، وآثاره الشعرية...

كما يركز هذا البحث على انتماء الشاعر إلى أمته العربية من خلال الدفاع عن قضاياها، ولا سيما قضيتها المركزية «فلسطين»، ومقاومة الشعب الفلسطيني للاحتلال الصهيوني، متغنيا بها لأنها ثورة على الذل والاستسلام، ويشارك فيها كل فئات الشعب، مستحضرا بعض الرموز المقاومة التاريخية» كصلاح الدين الأيوبي»... ومن حياتنا المعاصرة أمثال «غسان كنفاني»، وسواهما...

ويعالج أيضا الأبعاد الرؤيوية في طرح موضوعات الأرض، والشهادة، والتوحد بالطبيعة ضمن علاقات جدلية لا تهدأ حتى من بعد الشهادة.

الأمر الذي يجعلنا نصنف «حسين حيدر « شاعرا مقاوما، ملتزما قضايا وطنه وأمته.

Summary:

This research deals with “manifestations of the Palestinian resistance in the poetry of Hussein Haidar”, speaking at the beginning about his life and upbringing, his political affiliation, his culture, and his poetic effects... This research also focuses on the poet’s belonging to his Arab nation by defending its causes,

especially its central cause “Palestine”, and the resistance of the Palestinian people to the Zionist occupation, praising it because it is a revolution against humiliation and surrender, and all segments of the people participate in it, evoking some symbols of historical resistance. Such as Salah al-Din al-Ayyubi”... and from our contemporary life the likes of “Ghassan Kanafani” and others... It also deals with visionary dimensions in presenting the issues of earth, testimony, and unity with nature within dialectical relationships that do not subside even after martyrdom. Which makes us classify “Hussein Haider” as a poet of resistance, committed to the causes of his country and his nation

حياته ونشأته[1]:

حسين حيدر شاعر لبناني انتمى إلى أمته العربية، فحمل همومها، واهباً شعره لقضاياها، غنّى في قصائده العروبة وحضارتها، ورموزها الدينية والقومية والتراثية والإنسانية. ولد حسين حيدر في بعلبك عام 1934 في أسرة توارثت الشعر والأدب فأخذ نصيبه منهما، وتوفيّ في 27/10/2008

تلقى علومه الإبتدائية في مدرسة بعلبك الرسمية، وأنهى دار المعلمين، وحاز شهادته التعليمية.

بعد ذلك انتسب إلى جامعة دمشق ليدرس الحقوق، ويحصل على إجازتها في حزيران 1958.

انتماؤه السياسي:

تأثر حسين حيدر بمبادئ حزب البعث العربي الاشتراكي إبان دراسته في سوريا، فانتسب إليه بعد عودته إلى بعلبك حتى جاءت الوحدة بين مصر وسوريا وانقسام حزب البعث إلى أحزاب وشيع، فترك آثاره البالغة على الشاعر.

(1) استقيت هذه المعلومات من الشاعر نفسه، إثر مقابلة معه في منزله (بدنايل) بتاريخ 8/10/1997.

ثقافته :

تلقى علومه الإبتدائية في مدرسة بعلبك الرسمية، وبعد إتمام المرحلة الثانوية التحق بكلية المقاصد الإسلامية في بيروت عام 1944.

وفي هذه الأثناء كان نجم عبد الناصر قد سطع، وأفكاره بدأت تدغدغ أحلام العرب، تأثر حسين حيدر بفكره لتبدأ مرحلة الانتماء الناصري عنده...

آثاره الشعرية :

أصدر حسين حيدر مجموعته الشعرية الأولى عام 1974 التي حملت عنوان «سبع زنابق على ضريح عبد الناصر»[1]، ثم أصدر مجموعته الشعرية الثانية عام 1985 تحت عنوان :«كلمات للريح والأرض»[2]، ثم كانت مجموعته الأخيرة «كلمات للريح والأرض» المجموعة الكاملة[3]، والتي ضمنها قصائده التي لم ينشرها في المجموعة الأولى.

دراسة نصّيّة:

قالوا في المقاومة وأكثروا، بعضهم مدح، وبعضهم ذمَّ، وهجا، وبعضهم اتَّجر.

ومما لا شك فيه أنّ وجود الاحتلال الإسرائيلي بطبيعته الاستيطانية، هو السبب المباشر للمقاومة الفلسطينية والتي أتت نتيجة تجربة كفاحيّة غنيّة في مواجهة الاحتلال، وهي حلقة في سلسلة النضالات الشعبية المتواصلة وأهم عناصر هذه السلسلة :

1 – انتقال مركز الثقل في المقاومة من الخارج إلى الداخل، وتعود جذور هذا الاتجاه إلى ما قبل عام 1988 وبخاصة في أعقاب خروج المقاومة الفلسطينية من لبنان، وما رافق ذلك من ضرب لقيادة العمل الوطني الفلسطيني في الداخل.

2 – تدهور الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية في ظل الاحتلال، الذي اتبع سياسة اقتصادية خانقة في الضفة والقطاع تمثّلت بالاستيلاء على المياه والخيرات، وإقامة المستعمرات فضلاً عن الإلحاق الاقتصادي.

وهذا ما جعل بحثنا يتمحور حول النقاط الآتية :

---

(1) حيدر حسين، سبع زنابق على ضريح عبد الناصر، دار العودة، 1974.

(2) حيدر حسين، كلمات للريح والأرض، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ط1، 1985.

(3) حيدر حسين، كلمات للريح والأرض، المجموعة الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج2، ط1، 2008.

1 – التغنّي بالمقاومة.

- المقاومة الفلسطينية ثورة اجتماعية.
- ولادة قيم وأنماط سلوك جديدة.

1 – أناشيد الثورة.

2 – ملخص الأناشيد (موضوعها).

3 – لغة الأناشيد بين الواقع والرمز.

4 – الشّهادة.

5 – الأبعاد الرؤيوية للشهادة (تجلياتها).

6 – مفهوم الشهادة (معنى الشهادة).

كيف تجلَّت رؤية (حسين حيدر) إلى كل من هذه المسائل ؟ وأين خصوصية هذه الرؤية ؟

أهي ابتكار أفكار جديدة ؟ أم هي في انتهاج أسلوب تعبيري حداثي ؟

قبل الإجابة عن هذه التساؤلات لا بد من العودة إلى نصوص حيدر، التي إليها وحدها تعود الكلمة الفصل.

2 – التّغني بالمقاومة :

تناول هذا البحث مسألتين تشكلان جوهر المقاومة الفلسطينية (كما رآها حيدر)، وهاتان المسألتان هما:

- المقاومة الفلسطينية ثورة اجتماعية.
- ولادة قيم وأنماط سلوك جديدة.

وهذا يعني أنّ حسين حيدر يرى في المقاومة تعميقاً لأشكال العمل الاجتماعي، وتكافلاً ثورياً وتغييراً لبعض المفاهيم الموروثة. فما هي رؤيته إلى هاتين المسألتين ؟ وما هي المقاومة التي يؤمن بها ؟

- **المقاومة الفلسطينية ثورة اجتماعية :**

نظر حسين حيدر إلى المقاومة على أنها ثورة على الذل والخنوع، اللذين يمسكان بزمام مجتمعنا العربي، فهي (المقاومة) فعل تغيير وتخطٍ للمفاهيم التنازلية الاستسلامية، ونجد ذلك في قصيدة «**دهشة العشرين**» (المهداة إلى شهداء الخالصة سنة 1978) :

فجيعةُ الصَّمـــتِ أعـــذارٌ مُلفَّقَـــةٌ

حتَّى يُقالَ لهُ : صَمْتٌ وثرثارُ !

يَا كاتمَ الصَّوتِ، أيُّ الصّوتِ يحملُهُ

عن الضَّحَايَا الأُباةِ الصيِّدِ حَزَّارُ

هـــلِ الجـــريمةُ تُجْزى كُلَّمَا كَبُرَتْ

وهـلْ تغَيَّـرَ مــيزانٌ ومعـيارُ ؟

وهـــل يوحّدُ شعـــباً أو يقسّمُـهُ

نـصُّ البـياناتِ تأكيدٌ وإنكارُ ؟

مــاذا يريدونَ، عُمْرُ القـادمينَ غـداً

يَلْـــوِي بــهِ قَلَمٌ، يُلغيهِ مَهَّارُ

يا كاتمَ الصّوتِ، في شعبِ العذابِ سدىً

أليسَ يكفيهِ أَحمَلٌ وأوزارُ....[1]

يطرح الشاعر في هذا النص مسألة الصمت وما تجرّه من خنوع واستسلام، وذلك أنَّ كتمَ الصوت يعني عدم القدرة على الإفصاح عن الرأي لسبب ما، علماً أنَّ الثرثرة ليست نقيضاً لكتم الصّوت كما يريد الشاعر، بل هي بيانات وتصريحات لا طائلة منها، أمّا الصّوت ففي الموقف الّذي يتخذ إزاء قضية ما، ولن تكون هذه القضية سوى جرائم ترتكب بحق شعبنا وضحايا تسقط كل يوم. وفي هذا إيحاء بأهمية اتخاذ القرارات أولاً وتنفيذها ثانياً، خصوصاً أنَّ هذا الشّعب لم يعد يحتمل المزيد من الأسى «أليس يكفيه أحمالٌ وأوزارُ».

(1) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص 215.

لذلك يرى الشاعر أنّ الدنيا سكتت، والأرض نُسيت والدّار أصبحت سجينة، أي أنّ عناصر الوطن قد صُورت جميعاً وذلك في قصيدة «دهشة العشرين» ذاتها :

«...جاؤُوا يقولونَ للدُّنيا التي سَكَتَتْ

ما زالَ في أمّتي للصّوتِ أوتارُ

جاؤُوا يقولونَ للأرضِ التي نُسيَتْ

ما زالَ في وطني للرَّعْدِ أخبارُ

جاؤُوا يقولونَ للدَّارِ التي سُجِنَتْ

صباحُكِ الخيرُ للآبادِ يا دارُ... [1]

يمكن الملاحظة أنَّ المقاومة الفلسطينية هي ثورة على الواقع، الذي يعيشه الإنسان العربي بكل أبعاده وأشكاله، والذي لا بدَّ من العمل الدؤوب لتغييره، وتغيير الإنسان الذي يعاني مأساته.

- **ولادة قيم وأنماط سلوك جديدة :**

تعتبر المقاومة من أكثر السبل قدرة على خلق أنماط سلوكية جديدة، فهي تُشغل روح الدفاع في نفس الإنسان، فتخلق فيه شخصاً جديداً.

وقد كانت المقاومة الفلسطينية خير تجسيد لهذه الظاهرة وذلك من خلال الجدل الوطني والطبقي في القضية الفلسطينية، ففي ضوء المعطيات المتوافرة عن الطبيعة الوطنية الطبقية لقواعد الانتفاضة، المتمثلة بجماهير الفلاحين وجماهير الأحياء الشعبية والمخيمات، حيث تعيش حالة اضطوطني وطبقي، ونجد ذلك في قصيدة لحيدر عنوانها :«**عودي يا بهية**» (مهداة إلى خالد الإسلامبولي سنة 1981) :

(1) حيدر حسين، م. س، ص 211.

"...وأُلُوْفَ الرِّجالِ في حرِّ سينا

كَفَّـــنتهُمْ حــبَّاتُ رمـلٍ وجـيدِ

وحُرُوْقَ الأَقصَى وغـربَةَ محرا

بـــي وأقـــــدامَ سافـلِ عِرْبيدِ

قِفْ أَمامِي بكُلِّ وشيكَ واعْرِضْ

مـوكِبَ الشـاهدينَ فاليـومَ نُودِيَ

لسـتُ أخْشَى إذا قَضَيْتُ حساباً

إنْ دَنَتْ ساعتي، فها هُمْ شُهُودي

سَـكَتَتْ أمَّتــي طويلاً وأغضَتْ

عنْ ســكُوْتِي وشَارَكَتْنِي صدِيدِي

مــصْرُ عينُ الُّدنيا وَلَيْسَ كَثيراً

أنْ تَكِلَّ الأجفانُ مِنْ تَسْهِيدِ....[(1)]

يطرح الشاعر في هذا النص قضية المجاهدين الذين ضحّوا بأنفسهم في سبيل احتضان الأرض وحروق الأقصى الذي طالما تعرّض لاعتداءات الاحتلال بكل غطرسة وعربدة «أقدام، سافل، عربيد».

فيطلب الشاعر من أولئك الرجال أن يكونوا شاهدين على عَظَمةِ السَّلفِ، الذي لم يكن يبخل عن الأرض بشيء، ومن هنا جلالة الموقف «إن دنت ساعتي فها هم شهودي».

وليس غريباً أن تسكت أمة الشاعر طويلاً، فتدخل مع المبدع في علاقة توافقية يلفّها بسوار الصمت، خصوصاً أنّ مصر عين الدنيا كلّت أجفانها من كثرة السهر المؤرق، الأمر الذي يشير إلى معاناة لا نهاية لحدودها.

ويمكن القول: إنَّ وقوف المجاهدين، أمام الشاعر ليدلوا باعترافات السمو والتضحية، هو من الصور المبتكرة التي يأتي بها حيدر في قراءته المقاومة الفلسطينية.

ولا تختلف هذه الصورة في قصيدته «**نأتي لذكراك**» (التي كتبها بعد عشرة أعوامٍ على

(1) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص 73.

رحيل جمال عبد الناصر سنة 1981) :

«...حِطّينُ تبكي صلاحَ الدينِ، فارسَهَا

فهلْ شجاكَ اَلنَّوى يا سهلَ بَيْسَانَا

وقبَّةُ الصَّخرَةِ اشتاقَتْ إلى عُمَر

يُجَرِّدُ السَّوْطَ في وجهِ الذي هَانا

سفارةُ القدسِ في طهرانَ زاهيةٌ

وَنَجْمُ داوُدَ عالٍ فوقَ سيْنانَا

عجيبةٌ أُمّتي، طَهْرَانُ تَحْرقُهَا

ونَحنُ نَفْتَحُها في سدِّ أَسْوانَا

فأينَ يا مِصْرُ تمّوزٌ وعزَّتُهُ

وأينَ من كانَ قنديلاً لدُنْيَانَا...»(1)

عندما تبكي حطين تبكي صلاح الدين، هذا يعني افتقارها إلى رجال مثله قادرين على اتخاذ الموقف المناسب في الوقت والمكان المناسبين. وسرعان ما يتحول الشاعر من النظرية الى الرومنسية عندما يرى أن سهل بيسان حَزُنَ لافتقاد هذا الرجل الرمز، «فهل شجاكَ النوى يا سهل بيسانا». وعندما تكون سفارة القدس في طهران زاهية، فهذا يعني أن الفرس أخذوا بعين الاعتبار القضية العربية في الوقت الذي نجد فيه علم العدو يرفرف فوق سيناء، الأمر الذي يشعل جدلية بين تبني الفرس القضية العربية من جهة، وخيانة بعض العرب لها من جهة ثانية.

وهذا ما دفع الشاعر إلى التساؤل عن مكان وجود تموز في هذه الأوقات العصيبة خصوصاً أنه كان نوراً يبدد الكلمة الدكناء من السماء العربية. وهذا إشارة واضحة الى

(1) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص 86-85.

مسألة التوحد بالأرض، ونجد مثل هذا التوحد في شعر محمود درويش [1].

مما يعني أنّ حيدر يتشابه في المعاني مع غيره من الشعراء، لكنه يبتكر نكهة خاصة في إبرازها، إنها نكهة الشاعر الذي تعمق بما يقرأ، فكانت الثمار أبياتاً شعرية فريدة من نوعها.

ويتابع حيدر طرح جملة من القيم والأنماط التي أشعلتها المقاومة وأهمها تصعيد النضال ضد الصهاينة من خلال دمج التيار الديني بالمسألة النضالية في قصيدة «**حبة من رمل بيروت**» : (نظمها في وداع المقاومة، بعد تسعين يوماً من معجزة الصمود سنة 1982):

«... حَسِبُوا تنسَوْنَ هذا البرقَ في أرضِ الشَّتاتِ
حَشَـدُوا الإغــراءَ سـمراءَ ونَهْداً في فلاةِ
عَلَّقُـــوا أثوابَ خَــزٍّ فوقَ أسيافِ الكُماةِ
لَمَّعُــوا مِـــنْ ذَهَبِ البترولِ أقفاصَ البُزَاةِ
قـــلْ لهُمْ يا هازِمَ الموتِ على بابِ الحياةِ
ليتكُمْ تدرُونَ أنَّ القدْسَ جُزْءٌ مِنْ صلاتي..»[2]

يطرح الشاعر في هذا النص مسألة ارتباط الجبالدين، وهذا طبيعي لأن الدين الإسلامي حث منذ نشأته على الجوالتضحية في سبيل نشر الحق والعدل. فالشاعر هنا يشدد على الطبيعة العدائية للمحتل، الذي سلب الخيرات العربية، وقتل المدافعين عنها دون أن يدرك أن القدس (وهي أم الخيرات) جزء من صلاة الشاعر ومن واجبه الجهادي. «ليتكم تدرون أنَّ القدس جزء من صلاتي» فقد خرج التمني «ليتكم» إلى وظيفة جديدة هي التأكد، ليدلك على مدى تشبثه بالأرض.

(1) يقول الشاعر الفلسطيني محود درويش في هذا الصدد :
«...فالكرمل فينا
وعلى أهدابنا عشب الجليل
لا تقولي : ليتنا نركض كالنهر إليها،
لا تقولي : نحن في لحم بلادي...هي فينا»
درويش محمود، الديوان، بيروت، دار العودة، م.1، ط5، 1977، ص 542 – 543.
(2) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص47.

ويمكن القول : إنَّ هذا التصور للمقاومة، هو خلق جديد لأنماط جهادية لم تكن معروفة من ذي قبل، وهذا يوحي بقدرة الشاعر على استنباط المعاني الجديدة وتقديمها بأساليب مختلفة، وكما لا يعني أنه من اخترعها، بل كانت موجودة قبله، وجاء ليعطيها قالباً ذا نكهة خاصة بالشاعر وحده، وهنا خصوصية حيدر في رؤية المقاومة، إنها ولادة للإنسان، وتوحد بالأرض، وشوق إلى التراب، وقد يتفق في ذلك مع كثير من الشعراء المعاصرين وقد يختلف، ويبقى المعيار هو الألفاظ والتراكيب التي كانت معواناً لإبراز ما يعتمل في نفس الشاعر من أفكار في ظل الأوضاع العربية، التي يعرف جميعنا خيوطها وتفاصيلها.

وهنا يمكن أن نسجّل النقاط التالية :

1 – يتغنّى حيدر بالوطن عندما يقرأ المقاومة.

2 – يجسِّد المعاني التراثية التي ترفع اسم الوطن عالياً.

3 – إنَّهُ لا يبتكر المعاني بحدّ ذاتها لكنه يبتكر طريقة قولها وصياغتها.

4 – نلحظ في قراءته المقاومة الفلسطينية شوقاً الى الأرض والتراب وفي هذا دلالة على الأفق الرؤيوي الذي يحتضن موقف حيدر من كافة أشكال النضال.

5 – ثمة تفاؤل في قراءة المقاومة وهو يختلف في ذلك مع كثير من شعراء الحداثة ولا سيما الشاعر الفلسطيني توفيق زيَّاد[1].

2- أناشيد الثورة :

تعتبر أناشيد الثورة خير معبر عن روح النضال الفلسطيني : لأن تلك الأناشيد لم تكن مجرد سرد وقائع تاريخية، بل كانت تنفيساً عن هموم ثقافية، ونفسية، وسياسية، يعيشها المناضل الفلسطيني في أرضه.

---

(1) يقول توفيق زيَّاد في هذا الصدد :
«سبع سنين
لم نذرف الدموع يا جزائر
فلم يكن لديك لحظة واحدة
توهب للدموع
تضيع تنقضي بلا كفاح
بدون أن يلتهب التراب في
ملحمة الصباح...» زيَّاد توفيق، بيروت الدار العودة، لا. ط، 1970، ص : 49 – 50.

ومن هنا فإن هذه الأناشيد تعكس مرحلة تاريخية غنيّة بالوقائع، وتذكي النفس المقاوم في الإنسان العربي، الذي يعيش واقعاً متصدعاً يتروواح بين اليأس والهزيمة.

أما ملخص هذه الأناشيد (موضوعها) فهو لا يعد كونه تغنّياً بالنضالات الثورية، وحثاً على المضي قدماً بها، بلغة تتراوح بين التعبير العادي مرة، والتعبير الرمزي مرة أخرى...

الأمر الذي يجعل تقسيم أناشيد الثورة إلى عنوانين رئيسين أمراً مشروعاً :

1 – ملخص الأناشيد .

2 – لغة الأناشيد بين الواقع والرمز.

3 – **ملخص الأناشيد (موضوعها)** :

تتناول أناشيد الثورة عشق الفلسطيني لأرضه وتأكيده الاستمرار بالثورة والمقاومة فهي حصيلة غضب ونقمة على العدو الغاضب، ويمكن أن نقف على هذه المعاني في قصيدة «**نشيد الفدائيين**» (التي اعتمدت من قبل حركة فتح نشيداً للفدائيين سنة 1969) :

«...ليسَ يَمْحُو العارَ إلا نهرُ دَمْ

وعلَى حَدوِ البنادِقْ

قدْ عرفْنَا الحبَّ زَنْداً وَزَنَادْ

وضربْنا الوعْدَ لُغْماً في رَمَادْ

فَمَعَ الفجرِ وَدَاعٌ لشهيدْ

ومعَ الفجرِ فدائِيٌّ جديدْ...»[1]

يرى الشاعر أن الدماء وحدها هي التي تمحو العار، إنها دماء الشهادة التي تصبح حباً وغراماً، فالفجر يتهيّب لوداع شهيد ليستقبل مكانه آخر، ونستنتج من ذلك أن رؤية حيدر إلى الثورة عميقة في مضمونها، فهي تربط ما هو إنساني بما هو طبيعي (الفجر)، لكي توحي إلينا بأنّ المقاومة حالة يعيشها الجميع كي يمحى العار فلا يعود له تأثير على كرامة الإنسان، ذلك أنّ الثورة قدر لا خيار، وما يؤكد فكرتنا قوله في قصيدة «**لن**

(1) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص 267.

أساوم سأقاوم» (التي كتبت قبل مجزرة أيلول في حزيران 1970) :

«... أنا حربه...

صُغتُ منْ زَخْمِ الجماهيرِ قناتِي...

وَسِمَاتي...

قدمي في الأرضِ تَرْسُو كُلَّ خُطْوَةْ

فاشْهَدُوني

عَبْوَةً في كلّ حصوهْ

غَشَيتْ ذاتي بأنفاسِ التُّرَابِ

وترابي لا يُسَاوِمْ

بلْ يُقاوِمْ

بلْ يُقاوِمْ...»[1]

شبّه حيدر نفسه بالحرب التي صيغت من زخم الجماهير، أي أن سلاح الشاعر وسماته قد تبلورت بفعل الإرادة الشعبية، فأصبح (الشاعر) ناطقاً باسم كثيرين من أبناء وطنه، ثمَّ إنَّ قدمه تتّصف بالثبات وتتبع خطى المقاومين، الأمر الذي يدفعه الى طلب مشاهدته عبوة تنفجر غضباً في كلّ حبة رمل تدوسها قدمه، خصوصاً أنَّ ذاته توحَّدت بالتراب، الذي أضحى له أنفاس حرّى، وهذا ما يكسبه بعداً قتالياً :

« بلْ يُقاوِمْ

بلْ يُقاوِمْ»

ونستنتج مما تقدم أن حسين حيدر يتوحد بالشهادة توحداً تمّوزيّاً، بحيث تصبح كل كلمة من شعره رصاصة تتفجر حقداً بوجه العدو.

4 - لغة الأناشيد بين الواقع والرمز:

تعكس لغة الأناشيد وجهاً من وجوه الثورة، ذلك أن اللغة هي الجانب الثقافي الثوري الذي لا يستطيع إلا التعبير عن نفسه، فثورة الكلمات أشد وطأة من ثورة الرماح، نلمح

(1) حيدر حسين، الديوان، ج1، ص : 251-250.

ذلك في قصيدة لحيدر بعنوان: «أنت لم تقتل زرعت». (أهداها إلى غسان كنفاني في الأسبوع الأوّل لاستشهاده سنة 1972):

«... يومَ كنّا نمضغُ الأيام في لَغْوِ المقاهي
ثم نبني في مواخير الضجر
ناطحـــات للسحـــاب
ونسميـــها ... اغتـــراب!
كنـت تبـــني لغـــة للثائرين
قـــــــــلمٌ أو بنـــــدقيّة
قدر الثّورة أن نمضي سويّة
عندما أبصرت في الحشد الكبير
وجـــه غــــسان الصغير
يرسم النصر بعزمٍ من حديد
كنت في عينيه تنمو من جديد...
عنـدما حـــوّلت أنهار المدينة
وغرزت الرُّمح في عين النّهار
عنـــدما لـــوّنت ذيّاك الجدار
وتوزّعت على الأرض الأمينة
خاطبتني الريح فاسمع ما سمعت
أنـــت لـــم تـــقتل، زُرعت
وغداً يَعْشَوْشِب الوادي وتخضَرُّ السّنابل »[1]

يقدّم الشاعر في هذا النّصّ صورة جدلية لأمرين:

الأمر الأول يتعلق بما هو سلبي أي بالفراغ واللا عمل واللا حركة، ففي ذلك كلّه

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص: 201، 202، 203، 204.

توقّف عن الحركة وتمسّك بالثبات أيّا» كان نوعه. أمّا الأمر الثاني فهو الصورة المقابلة له أي الثورة والحركة الإيجابية لأن كل حركة تحمل في طيّاتها بعدا» تغييريا» إنما هي في حقيقة الأمر إيجابية لأنها تسمو بالإنسان إلى ما هو أفضل.

وسرعان ما يلجأ الشاعر الى تقديم لغة للثائرين، وهي قلم وبندقية، ويعود الواقع بالشاعر الى غسان كنفاني، فيلمح وجهه في كل وجه، ويرى حركته في كل حركة، إنه استحضار ذلك الشهيد، كي يعود فيزرع فينا الأمل والتغيير والقوة بالحياة.

ويتوحد كنفاني بالنصر فيصبح نموّه مرتبطا» به كلّ الارتباط، وينتقل بعد ذلك إلى العناصر الطبيعية من انهار ونهار ليشير إلى توحد يصل حدّ الدماء لأن الأنهار تحمل طابعاً تغييرياً وبعداً ثورياً. وتتوزع هذه العناصر إلى ثلاثة أقسام: الأرض، الريح، كنفاني، وأن تخاطب الريح الشاعر لتعلمه بأن موت الشهيد هو حياة وانبعاث، مما يعني أنّ كلّ استشهو حياة، وكلّ ثورة هي ضمانة له، ويؤكد هذه الحقيقة البيت الأخير الذي يحملُ تموزاً انبعاثياً :

« وغداً يَعْشَوْشِبِ الوادي وتخضَّرُ السّنابل»

كلّ ذلك يؤكد أن إيمان الشاعر بالثورة لا حدود له، فهو يبلغ السحاب، بعد أن ينبعث من عبق الأرض ليحكي قصة أرض وسماء أنبتت إلا الثورة.

تراوحت لغة حسين حيدر الثورية بين الواقع والرمز. فما هو مفهوم هذين المصطلحين؟ وكيف تعامل الشاعر معهما في قراءته الثورة الفلسطينية؟

الواقع هو كل ما يحاكي الحقيقة على وجه التفصيل، فيكون التركيز على سرد الحوادث بحيثياتها وأبعادها دون اللجوء إلى المجاز أو الحيد.

أمّا الرمز فهو يتمثّل في إدراك أن شيئاً ما يقف بديلاً من شيء آخر، أو يحلّ محله، بحيث إن العلاقة بين الإثنين هي علاقة الخاص بالعام لأن الرمز هو شيء له وجود حقيقي يرمز الى فكرة ما.

والغرض من الرمز، هو تفجير المكنونات الإبداعية وإطلاق العنان له، الأمر الذي لا تستطيعه لغة الواقع العملية. فعندما يكون هذان المصطلحان مستخدمَين في موضوع الثورة، أو الانتفاضة فإن تعريفهما يأخذ طابعاً التزامياً فضلاً عن كونه فنّياً.

ولا بد والحال هذه من التناص الديني، الذي يوظف في خدمة اللغة النضالية، الأمر الذي ينجم عنه تداخل ثلاثة مصطلحات:

1. واقع.
2. رمز.
3. تناص ديني.

وهذا يعني أن لغة الأناشيد الثورية في شعر حسين حيدر ليست مجرد كلمات تنشق في قاموس معين، بقدر ما هي نسيج اجتماعي بنائي يتضمن رؤية تنطلق من الواقع المتصدع للشعب العربي، وينتقل إلى معالجة هذا الوضع ويصل إلى بلورة صورة سياسية، اجتماعية، تكوينية للعالم الفلسطيني.

1- **الشهادة:**

عندما نتحدث عن المقاومة، هذا يستتبع حديثاً عن الشهادة، اذ من الصعوبة بمكان فصل أحدهما عن الآخر، والشهادة في آداب الشعوب المناضلة نبراس تضحية ووفاء. أمّا في شعر حسين حيدر، فإنها تأخذ طابعاً خاصاً يرتبط بطبيعة الشاعر وتكوينه الثقافي، والاجتماعي، وإن من يطالع ديوانه يكتشف أن الشهادة ليست مجرد دماء تراق فتصبح موضوعاً إعلامياً، وإنما هي مرتبطة بالأرض والطبيعة والإنسان. وانطلاقاً من هذا المبدأ فإن موضوع الشهادة في شعر حيدر، يتمحور حول مفصلين يشكلان أساس رؤيته إلى الشهادة وهما:

1- الأبعاد الرؤيوية للشهادة (تجلياتها).

2- مفهوم الشهادة (معنى الشهادة).

3- فكيف تناول حيدر هذين الأمرين؟ وما هي الأبعاد الفنية التي تجلّت في موضوع الشهادة؟

2- **الابعاد الرؤيوية للشهادة (تجلياتها)**

كيف تجلّت أبعاد الشهادة في شعر حسين حيدر؟

وما هي الصور التي تطالعنا في هذا المجال؟ وهل استطاع حيدر أن يأتي بشيء جديد؟ وكيف يمكن أن تتحول الشهادة إلى إبداع في شعره؟

قبل الإجابة عن هذه الأسئلة، لا بد من القول: إن الإبداع هو رؤية تضاف إليها مبادرة ومن ثّم تجديد.

أما الرؤية فغنية عند حيدر، قد تجلت في طرح موضوعات الأرض، والشهادة والتوحد بالمياه والأرض والأشجار، فضلا عن الموضوعات الأخرى، ويبقى كيفية تحويل هذه الرؤية إلى مبادرة لها خصوصيتها وقراءتها في الوجود.

إذا كان الإبداع جهدا فرديا يستتبع احترام المنبع الفني الذي يصدر عنه[1]، فإن الشاعر كان أمينا في تصويره لمجريات الواقع وتجلياته من خلال رؤية استكشافية قد تتحول إلى «رؤيا»، وهذا ما يتبدى لنا جليا في قصيدة:«أنت لم تقتل زرعت»، (وأهداها إلى غسان كنفاني في الأسبوع الأول لاستشهاده عام 1972):

«.. وكتبتَ الآنَ يا غسَّانُ أحلى ما لديك..

صِرتَ في الثَّامنِ من تَّموزَ قصَّةْ

لم تكنْ بينَ يديكْ...

.. في غُروبِ العصْرِ قَد تَزِني الحَضَارَةَ...

تولَدُ الابنَةُ لِصَّهْ

ويُبيحُ الزَّمنُ الدّاعِرُ غارَه..

سَرَقُوا الوَجْدَ الذي في مُقْلَتَيكْ؟

أيّها الشّمَّاخُ، مَا زِلْتَ تُقاوِمْ...»[2]

عندما يكتب غسان كنفاني أحلى ما لديه، فهذا يعني أن المكتوب يتَّسِمُ بقيمة نادرة تفوق كل الكتابات السابقة لهذا المبدع، ويوحي هذا أيضا بكثرة ما كتب سابقا، وسرعان ما يطالعنا الشاعر بأن هذا الشيء المكتوب هو الثامن من تموز، حيث استشهد كنفاني فأبدع بدمائه عرائس القصائد، ثم إن استشهذا المبدع جاء في عصر انحدار القيم الأخلاقية باسم الحضارة: «في غروب العصر قد تزني الحضارة»، وأن تزني الحضارة فهذا يعني أنها تنتج ما يضرُّ بالإنسان، وما يجعله يستثمر تقنياتها لما هو شرير، ويمضي الشاعر في استكشاف ملامح هذا الزمن، فالابنة تولد لصّةْ، والشرفاء يُغتالون،

(1) نور الدين، صدّوق الإبداع سؤال في الحداثة، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، عدد 23، 1994، ص:95.
(2) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص200، 201.

والوجد يُسرق من المقلتين العاشقتين كي تكلا عن الشوق إلى الحبيبة /الأرض، وهذا ما يدفع الشاعر إلى مخاطبة المقاوم مؤكدا شموخه ومضيه قدما في المقاومة.

وتطالعنا ناحية إبداعية تتمثل في الخلق والانبعاث، فالمشهد يُخلق باستشهاده إنساناً جديداً له سمات الجدَّة والابتكار، وفي هذا تناص لقول الإنجيل: «لأنه إذا كان أحدٌ في المسيح فهو خليقة جديدة »[1].

وهذا يعني أيضا أن الشهادة كما يراها حسين حيدر هي نبوّة والشهيد صاحب رسالة لا تكتمل إلا باستشهاده. كما أنه مفهوم حداثي وبعد رؤيوي للشهادة يجعل الشاعر في مصاف شعراء حركة الحداثة الشعرية المعاصرة التي تقوم أولا وأخيرا على التجاوز والثورة.

3 – مفهوم الشهادة: (معنى الشهادة)

كثر في الشعر العربي الحديث عن موضوع الموت[2] بكافة جوانبه، حتى ليكاد أن يكون محور فلسفة الشعر المعاصر، وقد طُرقت هذه القضية عن طريق الرمز، أو الرموز، سواء أكانت دينية مثل رمز المسيح، أو الحسين، ويوسف، أم فلسفية مثل سيزيف وأيوب، وتموز، والسندباد...

وحين نأتي إلى شعر حيدر فإن الموت يطالعنا بوصفه شهادة، الأمر الذي يعني أن شعره تجسيد في بعض المبادئ التي سمت عالياً فسما معها الفن الشعري، فكان الاستشبداية الخلود. لذلك فلا عجب أن نجد أنفسنا مشدودين إلى شعره، ففي قصيدة له بعنوان، «الثورة» (صيف 1975) يعبر تعبيراً واضحاً عن هذا الأمر:

«الثورةُ عاشقةٌ لا مهر لها إلا الأعمار

تتدلّلُ لكن تختارُ الأنقى بين الثوار

عيناها جُزُرٌ نائية ونداءٌ للبحَّار

وكأن الصوت عروس البحر تغنّي للأسفار

والشّعرُ صهيلٌ مكتومٌ يولدُ في أوّل غار.

(1) رسالة بولس إلى أهل كورنتس الثانية، آية 17

(2) الأيوبي، ياسين، كوامن الفن والإبداع في تراثنا الأدبي، بيروت، منشورات الشركة العالمية للكتاب، لا ط 1970، ص 53، وكذلك غصوب، فارس، «فضاء النون» فضاء حسن حمدان يوقظ الزمن من موته، يغسل التاريخ، مجلة الطريق، العدد الرابع، بيروت، 1979، ص 130.

...الثورة عاشقةٌ لا يخدعُها حجمُ الكلمات

لا يخدعُها غاوٍ يتسلّق أسوار الشُّرفات

مُذ وُجدَت عارية القدمين بقرب الشّلّالات

مكتوبٌ أن صباها باقٍ آلاف السّنوات

أنَّ الحرفَ المختوم بخاتمها سيصير لغات...»[1].

أن تكون الثورة عاشقة، وهي من الأساس معشوقة من المناضلين، فهذا يعني استعمال الشاعر المجاز العقلي، وأن لا يكون المهر إلا الأعمار، فهذا يدلُّ على أنها صعبة المنال، إذ إنها لا تأتي للجميع، بل تحتاج إلى طريق نضال طويل لا ينهض به إلّا أصحاب الهمم العالية. وسرعان ما تأخذ هوية الأنثى المغناج التي تنتقي من الشبّان أحسنهم، ومن هنا علاقة تشبيهية بين انتقاء الأنثى لأحسن عشّاقها من جهة، واختيار الثورة لأشجع المناضلين، ويمضي الشاعر في تدعيم هوية الشهادة الأنثوية، فعيناها جزر نائية ونداء للبحار، أن يكون للشهادة عينان، فهذا استعمال استعاري، خصوصاً أنهما جزر نائية (تشبيه)، ونداء للبحار (تشبيه).

وينتقل الشاعر إلى وصف الصوت، فإذا به غناء عروس البحر بما فيه من حرارة، أمّا الشعر فهو صوت مكبوت ينتظر أول إطلاقة عنانٍ له، ومن هنا البعد التقليدي في الوصف (صهيل، غار، المهر...).

ومن خلال وصفه للثورة، يتضح مفهوم حيدر للشهادة، فهي ثورة لا يحمل وطأتها إلا أُناسٌ هيئوا لها، وهي ليست مجرّد انقطاع المرء عن الحياة، وما يؤكد ذلك قول الشاعر: «الثورة عاشقة لا يخدعها حجم الكلمات»، وفي هذا إشارة إلى أولئك الأشخاص، الذين اعتادوا التنظير غير المرفق بالعمل، وهنا تظهر نقمة الشاعر على هذا المفهوم الرجعي للشهادة. ويستمر الشاعر في نقمته على المنظرين الذين يسعون للوصول إلى المناصب العالية من خلال دماء الشهداء، فيبين أن الثورة عارية القدمين، لأنها لا تحتاج إلى قصور عالية تحتضنها، إنها شعور داخلي ينشأ في نفس المرء منذ صباه، فتحفر في أعماق الذات لتتحول إلى لغات الدنيا كلها.

نستنتج مما سبق أن الشهادة كما يراها حسين حيدر تأخذ بعداً إنسانياً أنثوياً، يجعل

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص 138، 141.

من يريد الوصول إليها بحاجة إلى خصائص كثيرة تجعله مقاوماً غير عادي.

وينعكس هذا المفهوم للشهادة على رؤية حيدر إلى المقاوم/الشهيد في قصيدته:

«صار مجدُ الموت إلغاء المآتم» (التي أرسلها تحية إلى المقاومة الوطنية اللبنانية من غربته في أبو ظبي عام 1983):

«... أيها الموجوع من شوقٍ، أترضى أن نواكب

كيفما كنت، فخذ أعمارنا عنّا، وحارب

يا مقاوم

يا شهيداً حمت منه المآتم

يا عطاء الأرض في قحط المواسم

يا خُطى الزّلزال في هذي العواصم...» (1)

ثمّة حقلان دلاليان يسيطران على هذا النص، هما: حقل الشهادة والطبيعة، فحقل الشهادة يشمل الكلمات التالية: (حارب، مقاوم، شهيداً، مآتم). والطبيعة يشمل: (الأرض، المواسم، الزلازل). ولا شك في أن ارتباط هذين الحقلين له دلالة فنية إيحائية مفادها أنّ التوحّد بالأرض بكل ما فيها هو معنى من معاني الشهادة، ذلك أن الدماء التي تسقي تراب الوطن تعد بثمار قريبة. وهذا ما يعرف في أوساط الحداثة الشعرية المعاصرة بالانبعاث أو البعث. فحسين حيدر يرى الشهيد مثل طائر الفينيق الذي ينهض من تحت الرماد ليطهّر العالم من أدرانه، الأمر الذي يعني أن الشاعر لم يتناول الشهادة تقليداً لشعراء الثورة والانتفاضة، مثل محمود درويش، وسميح القاسم، بل رآها فعل إيمان يتجدد على غير مثال:

« يا خطى الزلزال في هذه العواصم...» فالاستشكما يراه الشاعر هو زلزلة لأركان المجتمع العربي، الذي يعمُّهُ الخنوع، دون أن يدرك أن ثماراً ستتأتى بعد طول عذاب:» يا عطاء الأرض في قحط المواسم...»

بعد قراءة هذين العنوانين يمكن تدوين الملاحظات التالية:

---

(1) حيدر، حسين، الديوان، ج1، ص 10.

1. الشهادة التي تغنى بها حيدر تؤسس لعالم شعري جديد، فليست تلك الشهادة التي نجدها في عالم الحروب العادية.
2. إن استحضار الشاعر بعض الشعراء يهدف إلى ترسيخ فكرة الموت، والانبعاث، ليوحي لنا أن الشهادة التي يقصدها ليست سقوطاً جسدياً في مواجهة ما.
3. اللغة التي يصوغ بها حيدر عباراته، وأفكاره، شعرية من حيث كونها قائمة على الانزياح في عملية الإسناد، فالعلاقات في هذه العملية تفقد بعدها الموضوعي، وتكتسب بعداً احتمالياً يذهب بنا كلّ مذهب.
4. يؤسس حيدر لعالم ثوري تسقط فيه المفاهيم الزائفة، ويسودها يقين يطمئن إليه الشعر الحيدري.

خاتمة البحث :

في نهاية هذا البحث يمكن أن ندوّن الملاحظات والاستنتاجات التالية:

1. إنّ رؤية حسين حيدر إلى المقاومة الفلسطينية حداثية، من حيث كونها قائمة على الاكتشاف.
2. استطاع الشاعر أن يبتعد في أسلوبه عن الابتذال فتجنّب العبارات الركيكة والالفاظ المبهمة إيماناً منه أن الشعرية ليست في التعقيد بل البساطة، التي تعيش الواقع فتعيد اكتشافه واقعاً جديداً.
3. لا يلجأ حيدر إلى التغاضي عن الثغرات، التي تعتري الواقع العربي رغم كونه شاعراً قومياً، وهذا ما يضعه على المحك مع شعراء لم يكتشفوا إلا حسنات التراث العربي، ظناً أنهم يواجهون ما هو غربي مستورد.
4. يميل الشاعر إلى استعمال مفردات مرتبطة بالحياة البدائية للإنسان: (السنبلة والزهرة والماء، تحتضن)، الأمر الذي قد يعني أنه يؤمن بقوةٍ قادرة على التحويل والتغيير.
5. من خلال قراءة نصوصه الشعرية، نكتشف أن هذه القوة هي الشعر عينه.
6. يمكن أن نصنّف حسين حيدر في مرتبة الشعراء الطليعيين الذين يؤمنون بالانبعاث، فشعره يؤسس لثقافة جديدة تعد بواقع آخر.

قائمة المصادر والمراجع:

1. حيدر، حسين، سبع زنابق على ضريح عبد الناصر، دار العودة،1974.
2. حيدر، حسين، كلمات للريح والأرض، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 2، ط 1، 1985.
3. حيدر، حسين، كلمات للريح والأرض، المجموعة الكاملة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ج 2، ط 1، 2008.
4. درويش، محمود، الديوان، بيروت، دار العودة،م.1، ط5، 1977.
5. زياد توفيق، بيروت، دار العودة، لا، ط .
6. نور الدين، صدوق، الإبداع سؤال في الحداثة، مجلة كتابات معاصرة، بيروت، ع .33، 1994.
7. رسالة بولس إلى أهل كورانتس الثانية.
8. الأيوبي، ياسين، كوامن الفن والإبداع في تراثنا الأدبي، بيروت، منشورات الشركة العالمية للكتاب، لا ط، 1970،ص،53، وكذلك غصوب، فارس، «فضاء النون»، فضاء حسن حمدان يوقظ الزمن من موته، يغسل التاريخ، مجلة الطريق، ع،4، بيروت.